مصادر تاريخ السودان الغربي بين التدوين والرواية الشفهية في العصر الوسيط

د. خالد علي عبد القادر*

ملخص البحث :

يتناول البحث الحالي قضية جدُ مهمة من وجهة نظره، من خلال الدعوة إلى الخروج من نمطية الاجترار التي أصبحت عادةً عند كثيرٍ من المؤرخين الذين يستخدمون الكم نفسه من المصادر عن تاريخ السودان الغربي، و هذا القول – وبشكل مجرد– ليس دعوة لترك تلك المصادر الاساسية، بل هو دعوة للبحث عن مصادر جديدة، مما هو سائد الآن، فالإشكالية والتي دائما ما تتردد في الاوساط العلمية للباحثين في تاريخ السودان الغربي هي التعلل بقلة المصادر، وندرتها، وهذا القول ربما يكون صحيحا، ولكن السؤال المهم الذى يجب طرحه هو: هل اجتهد الباحثون من أجل تطوير أدواتهم، وسعوا للبحث عن مصادر جديدة أو لا؟.

ويهدف البحث إلى دعوة المهتمين لخوض غمار تجربة جديدة للبحث عن مصادر لتاريخ المنطقة موضوع الدراسة، وزيارة تلك الاماكن، والاطلاع على ذلك الكم الهائل جداً من المخطوطات التي لم يزل عليها غبار الماضي إلى الآن .

ويسعى هذا البحث الى إلقاء الضوء عن الإطار الزماني والمكاني للسودان الغربي، وتقديم لمحةً عن جُل مصادره، من خلال عناوينها، ومؤلفيها وزمانها، فتلك المصادر الكلاسيكية التي صار يعرفها حتى غير المتخصصين لم تكتب في زمن وقوع الاحداث التي تضمنتها، وإنما نُقلت عبر المشافهة والذاكرة إلى أن وصلت إلى المغرب والمشرق، فدونها مؤرخون بعد ذلك في عصور لاحقة، والدليل على ذلك أن المؤرخ أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري نقل عنه من جاء بعده، وبشكل حرفي بل ان بعضهم انتحل جل ما كتبه عن بلاد السودان؛ لهذا نلحظ أن أغلب المتخصصين الآن في التاريخ الوسيط ملزمون بتلك المصادر، ولا يكاد يذكر أي موضوع في السودان الغربي إلا و رأوا أن ابن عبد الحكم، وابن قتيبة، وابن خرداذبة، واليعقوبي، والهمذاني، وابن حوقل، وغيرهم أساسٌ لا بد منه . إن هذا القول ربما يكون عند بعضهم مقبولاً، كما انه محمودٌ عندما يكون الحديث عن التاريخ والاخبار بشكل مجرد، ولكن كل هؤلاء المؤرخين سابقي الذكر لم يزر أحد منهم السودان الغربي ماعدا البكري، وابن حوقل الذى وصل إلى أودغست.

* كلية الآداب والعلوم مزده – جامعة الجبل الغربي.

إن ملخص أهم قضايا هذا البحث تكمن في محاولة وقوفه على حقيقة المصادر السودانية، وليست العربية وكتابها، وزمن كتابتها، وطرق تحقيقها، ودور علماء الغرب، وأهم إسهاماتهم خصوصا عندما نلاحظ مدى الخدمات الكبيرة التي قدموها من خلال دراساتهم الأركيولوجية والميدانية، إن محاولة الحديث عن الرواية الشفوية في التاريخ يجعل المؤرخين متوجسين وقلقين مما يقدم، ففي نظر بعضهم تعد الرواية الشفوية مجرد أساطير تضيع الحقائق، بل تجعل كل الاحداث على المحك، وهذا ربما قولٌ يجانبه الصواب، فما يود هذا البحث عرضه يكمن في أن أغلب مصادر تاريخ بلاد السودان الغربي تعتمد اعتماداً مباشراً على الروايات الشفوية ماعدا ما قدمه أصحاب الزيارات الميدانية زمن وقوع الاحداث أو لاحقا.

المقدمة

إن الحديث عن مصادر السودان الغربي في العصر الوسيط(*) هي قضية مهمة، ومحورية بالنسبة للباحثين، والدارسين لتاريخ المنطقة، فالمصادر الأولية قليلة، وتاريخ المنطقة كتب من خلال مؤرخي المناطق المجاورة، خصوصا المغرب ومصر، ولكن هذه المصادر مع أهميتها في كونها الوحيدة التي تقدم تاريخ السودان الغربي، فقد خضعت من قبل كاتبها للنقل والاستماع إلى الروايات الشفوية من الزوار والتجار، وطلاب العلم،(**) وغيرها من الطرق التي نقلت بها المعلومات .

إن الإشكالية الأساسية التي يقدمها هذا البحث تتمحور في ندرة المصادر التي تقف أمام أغلب الباحثين في تاريخ السودان الغربي، فكم المصادر العربية الإسلامية محدودة وقد استخدم مضمونها من خلال مئات الدراسات والأبحاث، لهذا وجب التنبيه على أن هناك دروباً أخرى لابد للباحثين من السير فيها، فجهد الباحث يجب أن لا يقف عند كتابه المواد الجاهزة، وإنما عليه إيجاد بدائل وطرق جديدة.

هناك من يزعم أن المصادر التي تتحدث عن تاريخ السودان الغربي كانت منقولة، وأصلها روايات شفوية، هو قول جانبه الصواب في تقديرنا، نظراً لوجود مصادر كانت بمثابة دراسات ميدانية في وقت مبكر، وجاءت معلوماتها نتيجة المشاهدة العينية لبعض الرحالة المسلمين، مثل محمد بن عبد الله اللواتي، المعروف بابن بطوطة(703-/1303م) الذي زار المنطقة، وقدم معلومات عنها في غاية الأهمية، حيث كانت منسجمة ومصورة للحدث التاريخي، فتوافقت فيها عوامل التأليف والرواية التاريخية، في كون الأحداث محددة ومرصودة زمنياً ومكانياً، ومجسدة لما كان عليه الوضع فيما ورد فيها، حتى يخالها مؤرخ اليوم جسداً ونصاً متكاملاً لا تكاد تنقصه إلا الروح .

إن مصادر تاريخ السودان الغربي، عندما تخرج من إطار تلك المصادر العربية والإسلامية تقدم في ثلاثة أُطرٍ، أولها: الشواهد الأثرية، وثانيها: الوثائق، وثالثها: الكتابات المحلية والغربية فيما بعد الحدث التاريخي، فقد

اعتمدت على الرواية الشفوية وكتبت في زمن متأخر جدا عن التي وقعت فيه. وقد شاهد الباحث عند زيارته لبعض مناطق السودان الغربي حجم ذلك الكم الكبير من الوثائق المكتوبة، التي لم تر النور حتى الآن. وأن ذلك الكم الكبير من الوثائق المحلية، تجعل الباحثين في بحر واسع وكم كبير من المواد التاريخية التي لم تصنف، بل إن قسماً كبيراً منها لم يعتمد بعد كمواد مصدرية، ونقصد بذلك الرواية الشفهية التي هي حقيقة تفرض نفسها في تلك البقاع .

إن تاريخ السودان الغربي أضاف ركناً مهماً لمصادره في كونه يقدم الرواية الشفهية كركن أساسي ومادة تدخل في إطار ما حدث في الماضي، فالرواية ليست أثراً أو شاهداً بل مجرد حكايات وأخبار وأساطير كثيرة، ومختلفة، حُفظ من خلالها جزءٌ من التاريخ، وهذه حقيقة يكتشفها كل باحثٍ في تاريخ السودان الغربي.

من جانب آخر فإن الغرب والمستشرقين اهتموا بتاريخ السودان الغربي كثيرا، وقدموا فيه دراسات لا ينكر حجمها، ولا يقلل من شأنها، حيث أصبحت طرق بحثهم، وأساليب طرحهم وعرض نتائجهم لتاريخ المنطقة منهجاً ودرباً من الدروب المتبعة عند كثير من المؤرخين الشرقيين، وهذا لا يعيب الدراسات في وجهة نظر هذا البحث إنما يخلق نمطية ويحدد اتجاهات مسبقة لعملية البحث، كما انه يفرض على المبتدئين اطراً وطرقاً محددة يجبرون على السير فيها، وهذا غير متاح عند كل الجامعات العربية، فهي لم تؤسس لذلك الغرض، ولم تستغل الجمعيات العملية الأخرى التي تستخدم طرقاً اشق ومكلفه مادياً، وهذا البحث يحاول الوقوف علي بعض القضايا الهامة في تاريخ السودان الغربي ليس من جانب الأحداث التاريخية، وإنما من جانب المصادر التاريخية، والمنهجية التي انتهجتها في تدوين المعلومات التاريخية الماضية، التي يحاول باحثو اليوم إعادة صياغتها وتقديم دراسات عنها .

المحور الاول : السودان الغربي، المجال والمصادر

أ- الإطار الجغرافي والتاريخي للسودان الغربي

إن تحديد الإطار الجغرافي للسودان الغربي يحتم علينا التعريف بالسودان أولا(***)، فهذا المصطلح أطلق من قبل الجغرافيين على كامل المنطقة الممتدة من البحر الأحمر في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن الحزام الصحراوي في الشمال إلى خط الاستواء في الجنوب ، وهذه الحدود الطبيعية كانت مجرد اصطلاح جغرافي، لتحديد ما يعرف باسم بلاد السودان، وهو لا يخضع لتقسيم عرقي، أو لمجال سيطرة سياسية لدولة محددة (فيج. 1982. ص15-17).

لقد قسم السودان الكبير هذا - والممتد على عرض القارة وفي منتصفها - من قبل المتخصصين داخليا، وذلك لغرض الدراسة ليس إلا، فكان السودان الشرقي الذي يلي البحر الأحمر إلى تشاد، والسودان الأوسط،

الذي يبدأ من تشاد إلى حدود دولة مالي السياسية في العصر الوسيط. أما السودان الغربي فهو الممتد من السودان الأوسط إلى المحيط الأطلسي (فيج. 1982. ص15-17) بحيث ضم منحنى نهر النيجر، الذي قامت فيه الدول السودانية الاسلامية التي حكمت المنطقة.

إن مساحة السودان الغربي في العصر الوسيط كانت شاسعة، وقد شملت تلك الرقعة شعوب أفريقية عديدة ومختلفة، فأهمية المنطقة جاءت في كونها منطقة تحتوي على مواد خام تجارية مهمة لدول الشمال الإفريقي كالذهب، وتجارة الرقيق، والعاج وغيرها من المواد غالية الثمن (Mauny :1988)؛ لهذا لم تمثل الصحراء حاجزاً بين تجار المناطق الحضارية في شمال أفريقيا والسودان الغربي، وفي ظل هذه الأهمية الاقتصادية ودون اللجوء إلى فرض سيطرة إسلامية بالقوة تسرب الإسلام إلي المنطقة بفعل الوسائل السلمية، والانتقال غير المقصود في البداية، ولكنه لم يكن يمثل الانتشار الفعلي للإسلام بكل معنى الكلمة، بفعل كثير من العراقيل التي دون شك وقفت حائلاً دون انتشاره بين العامة، فعلاقة التجار في البداية كانت مع نظرائهم من التجار ومع الاسر الحاكمة، ولا بد وأن هناك إعداداً كبيرة من التجار الجشعين الذين لا يهمهم إلا الربح والثراء المادي، قد امتهنوا تجارة الرق مثلاً، فكيف ينشرون الدين وهم بتلك الأخلاق؟ وهؤلاء ليسوا بالمثالية المطلوبة لينشروا ديناً شاملاً يحمل في بعضه شيئاً من التحريم لكثير من التصرفات والمعاملات التي كان التجار يقومون بها . فضلاً عن عامل اللغة، فالدين الإسلامي يقوم على جانب كبير من الروحانيات التي لا تفهم إلا من خلال الفهم العميق للغة التي يشترط أن تكون اللغة العربية ،التي ليس من السهل تعلمها في تلك المجتمعات خصوصاً فئة الأميين الأفارقة، والمقصود هنا العامة أو العوام، وليس العلماء وطلاب العلم، بالإضافة إلى وجود العادات والتقاليد. والعامل الأخطر أمام انتشار الإسلام كان وجود المعتقدات الإفريقية (مجاهد 2002م ص 47-72) والتي كانت هي أساس حياة الإفريقي، بها يحيا، ومن أجلها يموت.

ومع ذلك جاز للكثيرين عدُّ تلك المنطقة إسلامية خالصة ، خصوصا في المدة(656هـ / 1258م) إلى سنة:(898هـ/ 1492م) وهما من التواريخ المهمة في التاريخ الإسلامي، في كون الأول يمثل سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وانحسار المد الإسلامي أمام إمبراطورية المغول، والثاني يمثل سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس ، وهذا الأخير أفاد منطقة السودان الغربي كثيرا، بسبب حركة النزوح والهجرة لكون السودان الغربي منطقة محمية بالصحراء؛ وبعيدة عن أي خطر يتهدد الإسلام أو ينافسه، وهو ما جعله يرسخ ويتجذر في المنطقة، لهذا ليس من الغريب قيام دول إسلامية خالصة بداية من المرابطين (هوبير ديشان 2011 ص 40-110) قبل ذلك التاريخ، وقد كان لهم دور هام في أسلمة المنطقة، ثم دور مهم في أسلمة المنطقة، ثم دور دولة مالي الإسلامية في إسقاط غانا الوثنية، ثم الصنغي، ودور إمارات الهوسا السبع، ودولة الكانم والبرنو، وهذه

الدول مثلت الإطار الزمني والتاريخي كما أنها كانت تعني السلطة المسيطرة التي حكمت عبر العصر الوسيط السودان الغربي والأوسط وهي مسلمة .

ب– قراءة نقدية فى المصادر(****) .

يمكن عدُّ مصادر تاريخ السودان الغربي محدودةً إذا ما قورنت بالمناطق الإسلامية الأخرى كالشمال الإفريقي، أو مصر، أو المشرق، أو الأندلس، ولكن ذلك القدر اليسير من المصادر التاريخية كان يفوقه التاريخ المحلي الشفوي ، فقد سجل ابن بطوطة جزءاً من ذلك المشهد الذي وصفه بالمضحك، الذي يجلس فيه السلطان في مالي ليستمع للشعراء وهم يعزفون على بعض الآلات الموسيقية المحلية، ويرقصون ويحركون أجسامهم بطرق غريبة، ويبدو أنهم يبعثون الحياة، ويزرعون الروح في حكايات الأجداد؛ ثم يتكئون ويهمسون في أذن السلطان، وعلى أكتافه دون حركة منه، فهو يقدرهم بالرغم من تقديس السلطان عند شعوب السودان الغربي لدرجة أنهم يتربون عند وجودهم في حضرته (ابن بطوطة ص 685-687) أي يضعون التراب على رؤوسهم، إن احترام السلطان للشعراء والمنشدين هو احترام للأسلاف، وتقديرً لهم من خلال الترانيم والأشعار التي تمجد أساطيرهم، وتحفظ أصولهم، فالسلطان لم يهتم بابن بطوطة المؤرخ الذي جاء للمنطقة وكتب عنها فوصلنا ما كتبه، وهو من النوافذ الضيقة علي المنطقة، والسلطان يكاد يركع للشعراء فهم مؤرخوه وليس ابن بطوطة، وهؤلاء المنشدون يذكرهم ابن بطوطة باسم الجلا والمفرد منهم جالي، وهم من يحفظون التاريخ، ويرددونه للعامة والخاصة، ففيه حفظ الأنساب والأصول والتاريخ والحروب والموعظة وكل القيم المحمودة في مجتمعاتهم(ابن بطوطة ص 687) .

يذكر John Hunwick أن جزءاً كبيراً من تاريخ مالي يعتمد علي الرواية الشفوية، وينقل هذا التاريخ من جيل إلى جيل عن طريق المنشدين الشعراء (Hunwick PP2-10)، وهؤلاء دون شك كان لهم دور كبير في المجتمع السوداني، وهذا النوع من الشعر كان يعتمد علي حفظ الرواية مع خصب الخيال والقدرة على التعبير والرقص والحيوية كما أكد ذلك ابن بطوطة .

إن هذه الظاهرة يبدو أنها من عادات المجتمع السوداني الغربي، فوجود الحفظة والمنشدين في العائلة والعشيرة يمثل الاستمرار والحياة الماضية والحالية، وتنقل إلى المستقبل عن طريق الأجيال الحاضرة، فالماضي المنقول ما هو إلا وقائع وتواريخ وانتصارات وملاحم جمعت في تاريخ الذاكرة، وخرجت كملاحم وشعر وقطع درامية ترفيهيه تصور الماضي بكل معانيه، لدرجة أنها تبعث فيه الحياة، وهذا ما يغيب عن مصادر التاريخ المكتوبة التي غادرتها الحياة وتحتاج من مؤرخ اليوم إعادة بعث أحداثها من جديد.

لقد كانت المصادر الإسلامية تعتمد في تدوين موادها بين النقل من بعضها بعضاً، أو بين البحث عن مصادر تروي الإخبار، خصوصا من التجار وطلاب العلم والحجاج والوفود الرسمية للدول، وغيرها من الطرق التي يقتنص فيها المؤلف الأخبار من الأسواق والمنتديات والطرق والدروب، ويضعها كما هي دون إخضاعها للتقييم والنقد، والدليل أن هناك روايات كثيرة غربية عن بلاد السودان وردت كما هي كقضية الذهب ومصادره وطرق الحصول عليه ، والعادات والتقاليد الغريبة، وقضية القبائل التي تأكل البشر، وهي علي اختلاط وتماس مع المسلمين هناك في الإقليم (البكري العمري 2002ص 128)، وبين كتب الرحالة والمسافرين للمنطقة، وهنا يأتي ابن بطوطة في المقدمة – إن لم يكن الوحيد – فهو من زار السودان الغربي، وأختلف بعضهم في تلك الزيارة وأهدافها، وهل تدخل في إطار التجسس ونقل الأخبار للدولة المرينية، أو أنها استكمال للرحلة التي طاف فيها الرحالة أكثر من نصف العالم المعروف آنذاك بالرغم من أنه لم يكتبها بيده .

فالجزء الذي جاء به ابن بطوطة عن السودان الغربي يجد فيه كل باحث معلومات جيدة عن المدن والطرق والقوافل، وأنواع الطعام والشراب والبيوت العامة والخاصة، والأمراء والسلاطين، وعاداتهم في الخروج، ومراسم جلوسهم للحكم، كما يقدم عرضا لبعض العادات والتقاليد، والقبائل والواقع الديني والمعاملات، وثقافة المجتمعات التي زارها، ويذكر أيضا بعض الأمراض وعلاجها (ابن بطوطة ، 685 695 .) ،فهو يقدم مجملاً عاماً عن الأنظمة السياسية والنظم الاجتماعية والمراسيم والمعاملات والتجارة والاقتصاد، ومع سكوته عن كثير من الأمور، فما قدمه يفوق الوصف رغم قلته، فهو الوحيد في عصره الذي ترك لنا طاقة نطل من خلالها على السودان الغربي في وقت مبكر، والوحيد الذي جاءت مصادره متممه لما شاهد، فلم يعتمد على ما يُروي له شفهيا أو ما سمعه فقط على عادة مؤرخي عصره .

لقد اكمل المؤرخ الرحالة الحسن الوزان تلك الصورة، ونقل هو الآخر معلومات عن بلاد السودان مع أنها متأخرة عن زمن ابن بطوطة، حيث وصل إلى هناك سنة (917هـ/1511م)، ولكنها لم تأت بجديد وكأن الزمن هناك لا يتحرك. وكذلك عند مقارنة ما قدمه هذا الرحالة وما جاء به الرحالة الأوربي كلابرتون الذي زار المنطقة سنة (1220هـ/1805م) والمرحلة بينه وبين الوزان كبيرة لم يضف هو الاخر جديداً؛ بل اورد عبارات تعبر عن خيبة امله فيما قدم عن تنبكت المدينة الذهبية (كلا يرتون 2003م ص 154)، وهذا القول ينطبق الان تماما فعند زيارة تلك الأنحاء نلاحظ أن ما قدمته المصادر العربية من تضخيم لم يكن حقيقا، فالمجتمع السوداني كان بدائياً يحاول ان يحاكي العواصم الاسلامية، إلا أنه اقل من ذلك بكثير.

المحور الثاني: السعدي وكعت نموذجان لمؤرخي السودان الغربي

أ- النص المدون والرواية الشفهية عند عبد الرحمن السعدي(*****) ومحمود كعت(******) .

لقد درج جلُ المؤرخين الذين كتبوا عن السودان الغربي الاعتماد على الرواية الشفوية، فهي المصدر الاول والاساسي المكون للحدث التاريخي، وهذا القول والحقيقة لا تضعف القيمة العلمية للمصادر، أو المراجع، فمثلا : حين اعتمد المؤرخ ابن خلدون بشكل مباشر عن الرواية لم تضعف من تاريخه، وتاريخ المؤرخين الباقين، بل يمكن للباحثين المحدثين إن يستفيدوا من تلك الرواية من حيث التحليل، والتوضيح والتدقيق، والتفريق، بينها كما أنها مادة مهمة للنقد، فهي تقدم مادة دسمه لمواد مناهج البحث التاريخي من اجل الوصول للحقيقة، وكذلك تقدم مادة خلافيه غير منتهية الحسم، وحل قضاياها تحتمل وجهات النظر المختلفة .

ولكن ما يضعف المصادر التاريخية هو ضعف مصادرها التي تتكئ عليها، وتستقي منها المعلومات والإحداث والإثراء والتنوع التاريخي، وكذلك فإن عدم وضوح التقديم وعدم سلامة الطرح داخل المصادر والتعارض الغريب والمشكك في الرواية والزمن الذي تتحدث عنه المصادر، يجعلها تفقد قيمتها، بل الأخطر من ذلك عدم وضوح مصادر المصادر، وهل هي شفوية محلية ؟ أو أنها متداخلة غربية وشرقية ؟ وغير مصنفه، وغير محددة الزمن أي غير مروية في زمن واحد، فتداخل الأزمنة يجعل الخلل واضحا، ويجعل التدوين يسبق الأحداث بل أن الإحداث تسبق الأقدار والمستقبل أيضا، فهي مصنوعة، وموضوعة بشكل انتقائي ومفروز، ومقصود، وهذا ما يخرجها عن قيمتها وأهمتها، بل يجعلها مادة مزورة وغير موثوق فيها.

لقد كتب المؤرخ عبد الرحمن السعدي تاريخه (تاريخ السودان)، هو مدرك للأهمية التاريخ في حد ذاته، ويبين هذا من خلال مقدمة كتابه التي يرى أنه من الضروري كتابة الأحداث والأخبار/ أخبار الوطن والناس والأسلاف إذا هو مدرك أن التاريخ ما هو إلا أخبار وتاريخ من غبر ينقل للمستقبل، لأجل حفظه واستمراريته وأخذ المواعظ منه (السعدي: 1981: ص 1-2)، وفي هذا وعي مبكر ومهم لدور التاريخ والمؤرخ عند مؤرخي السودان الغربي ، فالسعدي وهو إذ يكتب نصوصه يكتبها بوعي وأدراك، ربما يكون جزئياً وهذا ما تثبته منهجيته في كتابه، فهي جزئية تستحق الدراسة، ولكن هل كان السعدي يكتب وهو مدرك لما يكتب كما قال؟ ولماذا يكتب أصلاً ؟ ومَنْ أجل من يكتب ؟ هل للعامة وطرق معاشهم وحياتهم أي دور في تاريخه ؟ أم أن التاريخ حكر علي الأقوياء من السلاطين ، والحكام القادرين والمتمكنين اقتصادياً واجتماعياً؟ وهل كان سلاطين السودان الغربي يهتمون لكتابه التاريخ ويشجعون المؤرخين على الكتابة؟ أو غير ذلك ؟

لقد كتب السعدي وهو يحاكي الأوائل من المؤرخين المسلمين، حيث اطلع – كما يبدو- على جزء كبير من مؤلفاتهم، خصوصا وأن مالي عاصمة السودان الغربي، ومدينتها الأسطورية تنبكت كانت تشهد حراكاً

اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً متنوعاً، لا سيما بعد العصر الوسيط ، فقد كانت حكاياتها الاسطورية تخرق الشرق والغرب وما نقل عنها حتي للغرب الأوربي جعل منها المدينة الذهبية فاستمات الغرب على دخولها والوصول اليها، وهوما دفع بكثير من الرحالة أن يسافروا اليها، فلم يجدوا ذلك الزخم الذي كُتب عنها والذي وصلهم. كما أن بعض المراجع تحدثت على إن هناك حركة ازدهار كبيرة في مجال النسخ، وكتابة الكتب في تنبكت (Hunwick PP3-16)، وهذا دون شك تضخيم لما كان عليه الوضع، فحركة التدوين انحسرت كما يبدو في عصر لاحق، وذلك الكم والتاريخ الشفهي الذي صنف كتاريخ أسطوري شفوي مازال خارج إطار الاعتراف التاريخي .

إن الباحث والمراجع والمدقق لتاريخ السعدي لاحظ أنه يتميز بالتقسيم المحكم والجيد للكتاب، فهو يسير حسب عرف المؤرخين في كونه يقسم الأبواب علي حسب السنين، وهذا يجعله أفضل حال من المؤرخ كعت فهما متخصصان في تاريخ الأساكي من حكام الصنغي، وأهم أعمالهم، وأحوال العامة والخاصة. ويمكن وصف كتاب تاريخ السودان في الآتي:

1) الكتاب يقع في (326) صفحة ومكتوب بخط عربي سهل القراءة، ومبوب بشكل جيد وواضح ويأتي في (38) فصل، حيث يقف عند سنة: (1065هـ /1654م) .

2) يذكر المؤلف في أحيان كثيرة مصادره، التي من بينها ابن بطوطة، واحمد بابا ، ويكتفي بذكر عبارات الرواة الثقات، أصحاب الروايات الصادقة، وهم أصحاب الرواية الشفوية الذين حملوا تاريخ المنطقة معتمدين على الذاكرة من جيل إلى جيل حتى دون ذلك التاريخ (السعدي 1981 ص8).

3) أسلوب الكتاب واضح وسهل، وغير معقد، ويكاد يخلو من المصطلحات الغريبة أي أنه يستخدم الأسلوب الحديث في الكتابة، وربما هذا يضعفه ويضعف مادته، مع اعتماده كعادة أهل المنطقة على ذكر الكرامات والجن والأمور الغيبية التي تصنع الأقدار، ولكنها في يد العلماء والسلاطين دون العامة (السعدي 1981 ص 10-11).

4) السعدي يؤرخ للدولة، والمدن والأسواق والعمارة، والتجارة وبعض من الطعام والشراب ، والأحوال العامة، مع ميوله للحديث كثيرا عن الحكام، ولكنه بين فينة وأخرى يذكر موضوعات مهمة كتاريخ الطوارق وبعض وسائل التسلية في السودان الغربي كالشطرنج السوداني وغيره، كما خصص بابا للحديث عن حاكم صنغي الأول(سن علي) الذي وصفه بأبشع الأوصاف، وأضل النعوت(السعدي 1981 ص24 . 26، 46 ، 89 .). وفى هذا ربما إرضاء للاسكيا مغتصب الحكم .

5) لقد طُور النص الشفوي الشعبي عند السعدي، فقد طوعه لكي يكون مادة تاريخية مكتوبة، لا يجد المؤرخون بداً من الأخذ منه والاعتماد عليه، وبالرغم من التحفظ على الرواية الشفوية عموما، فإن تاريخ السودان الغربي وبسبب ندرة مصادره يجعل الباحثين أمام خيار وحيد، هو استخدام نصوص الرواية الشفوية الخيالية التي انتقلت مع الأجيال.

ب– التدوين التاريخي عند المؤرخ محمود كعت:

لقد قدم المؤرخ محمود كعت في كتابه تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الامور وتفريق أنساب العبيد من الاحرار أنموذجاً مختلفاً عما قدمه المؤرخ السعدي في كون كعت استخدم الخط المغربي في الكتابة، ورأى أن النصوص المدونة تحتاج إلى عدم التفريق وهوما جعل كتابه نصاً واحداً في الشكل، انقطاع فيه بالرغم من تنوع المعلومات واختلافها كليا، عن بعضها البعض، ويمكن ذكر ما له وما عليه من خلال الآتي:

1) الكتاب يؤرخ لمدينة الصنغي وحكامها من الأساكي، حيث جاء في(186) صفحة مكتوبة بالخط المغربي، والكتاب كتلة واحدة غير مقسمة زمنيا، أو أي تقسيم أخر، وهوما يضعف المنهجية، بالإضافة إلى كونه يعتمد على الرواية الشفوية.

2) الكتاب يستغرق في بناء تاريخه الأسطورة والخيال أكثر من المعقول، لدرجة أن الجن وأصحاب الكرامات كانوا أكثر من السكان المحليين(كعت 1920 ص 21 ، 24، 66).

3) هناك ظاهرة في الكتاب، وهي تسرب الفكر الشيعي في المنطقة، بالرغم من عدم وجوده التاريخي، وذلك من خلال الأئمة الاثنا عشرة، وفكرة الخليفة المنتظر، وأحاديث الرسول الكريم في ذلك، كما إن الجن شاركت في رسم تلك الصورة، بما ترويه عن ذلك الموضوع، ويبدو أن هذا ما روته الرواية الشعبية التي تسهم دون شك في دعم الحكام وتأكيد شرعيتهم عن طريق تلك الروايات، أو عن طريق الانتساب إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(كعت 1920 ص ،66-29-21-18-17-11.).

4) لقد كان النص الشفوي المدون أكثر وضوحا عند كعت، حيث سيطرت الخرافة والخيال الذي لا يصدق على كثير من الإحداث، في كونها لم تكن في إطار الزمان والمكان ، وصارت تتحدث عن لا زمن، وترسم خطوط المستقبل بكل دقة، لدرجة أن الإنسان عاجزٌ عن تغييرها أو حتى المحاولة، فهذا واقع مفروض بذواته وشخوصه، من قبل القدرة العليا غير المرئية، ولكن الواضح والجلي أن هذا الكتاب لم يكتب في زمن واحد بل في أزمنة مختلفة، جاءت بعد وقوع تلك الأحداث المرسومة بدقة وبعناية وبأسماء منفذيها(كعت 1920 ص 67-65 18-15.) .

5) مستوى التفكير الذي يقدمه الكتاب ينم عن رواية شفوية منقولة بين السكان دخلها الخيال والأسطورة بشكل أضعفها، وجعل كل المادة علي المحك، فكما يبدو أن الثقافة الإفريقية والتراث الإفريقي أسهم في حفظ البطولات، والأعمال الخارقة في ثوب إسلامي، يحمل ثقافة دينية متأثرة بالإرث الإفريقي، في كون السحر والجن والقدرة الخارقة لم تغب عن الإحداث، مع تعديل يسير في إضافة الرؤية والأحلام كوسيلة لكشف المستقبل (كعت 1920 ص 66,18-17.) .

6) عندما يتحدث كعت عن مصادره فإنه يذكرها ضمن الرواة الموثوق فيهم ، والسلف الذي لا يرقى الشك إليهم، كما أنه لا يستحي في ذكر أن بعض مصادره من العوام الذين يستخدمون العنعنة في نقل الإخبار(كعت 1920 ص62-41).

7) الكتاب يحاول محاكاة قصص ألف ليلة وليلة، خصوصا عندما يتحدث عن مالي وعظمتها وسلاطينها ، ويعدها ضمن أربعة أعظم مدن العالم(كعت 1920 ص38-37,35).

8) يقدم الكتاب معلومات عن كثير من النساء، وخاصة أمهات السلاطين، وهذا ميزة مهمة عند المؤرخ تكاد تكون معدومة في التاريخ الوسيط، ولكن المشكك في الموضوع ذلك الأسلوب الحديث في الكتابة، ووجود بعض المصطلحات الحديثة السابقة لعصره، دون شك تثير شكوكاً عن الكتاب وزمنه، وهل أن أحداً تصرف في نصوصه وأضاف عليه أشياء ليست فيها أصلاً،(كعت 1920 ص 81).

9) ما يجعل الكتاب رواية شفهية مدونة خالصة وجود كثير من المصطلحات المحلية والشعبية فيه، وهذا من وجهة نظر الدراسة لا تضعفه، فهناك من يرى ذلك ضعفا كما يُحمل صاحب الكتاب ضعف اللغة، وعدم تماسك فقراته كنقد يوجه إليه، ولكن ما تتوقعه هذه الدراسة هو كون اللغة العربية هي اللغة الثانية بالنسبة للمؤرخ، بالإضافة لكونه ينقل حكايات شعبية، وارثاً شفهياً لو دخلت عليه محسنات اللغة لضاعت اغلب معانيه(كعت 1920 ص 34) .

10) لقب كعت يعني في لغة الفلان القاضي، والمؤرخ محمود كعت وعلى ما يبدو أنه لم يكن الوحيد الذي كتب هذا الكتاب، فأحداثه الطويلة، التي تعبر إلى المستقبل أي بعد هذا المؤرخ تشير إلى أن هناك من اكمل مسيرة هذا المؤرخ، فهو كتاب منسوب إلى الاسرة كعت أي: أنه كتب عبر ثلاثة اجيال. (الشكري 2010 ص 119) .

المحور الثالث: الرواية الشفهية والمخطوطات:

إن الحديث عن مصادر تاريخ السودان الغربي الشفهي(*******)، حديث ذو شجون، في كونه يعبر عن عامية المعنى في صياغة تاريخ المنطقة، فهو منقول بين الناس شفهيا، حيث تنافس المنشدون في حفظه، وأضافوا

عليه من أرواحهم، وبعثوا فيه الروح من خلال الرقصات والتعابير الشكلية والجسدية، لكي يجملوا قبحه، ويمجدوا مليحه، فانتقل ذلك في عقول الرجال والنساء، وأصبح تاريخاً يحكى في كل الأوقات للعبرة والموعظة، والتسلية المستوحاة من البيئة ومن ثقافة المجتمع نفسه.

من جانب آخر يعد طول مدة الاحتكاك العربي الإسلامي بشعوب السودان الغربي، والاوسط وزيادة حجم التبادل وانتقال نماذج التأليف الاسلامي من المشرق والمغرب إلي النخبة المتعلمة إلى ما وراء الصحراء، هو ما ادي إلى ظهور نماذج التأليف والتدوين التاريخي فيما بعد القرن: 14م، فكان محمود كعت والسعدي هما اشهر من كتب عن تاريخ المنطقة؛ وفيما بعد تتابعت المؤلفات والدراسات حتى صارت الشهادات الاوروبية البرتغالية المبكرة والرواية الشفوية ضمن الاستدلال التاريخي للمنطقة .

لقد فرضت الرواية الشفوية والأساطير نفسها كمصدر مهم لتاريخ الشعوب السودانية، فقد صارت مخطوطات يشار إليها بل تستخدم ويعتمد عليها بشكل مباشر في سد ثغرات المراحل الزمنية في التاريخ الافريقي، والدليل على ذلك ما قدمه ريشموند بالمر H.R. Palmer في كتابة Sudanese Memoirs الذي ورد فيها ما اصطلح عليه بحوليات (كانو) والتي اكتشفت سنة: 1909م، حيث كانت مكتوبه بالعربية لمؤلف مجهول، ترجمت إلى الإنجليزية عن طريق المؤرخ (بالمر)، وطبعت سنة:1967م وتعد من المصادر المهمة في تاريخ (مدينة كانو) وحكامها وهي تقع ما بين صفحة 92- 132 من الكتاب نفس، حيث سرد فيها قصة أو اسطورة بياجيدا Bayajidaia وقدومه لبلاد الهوسا، وكيف تأسست الإمارات ، ثم قدم الحوليات في صفحة:97 تحت عنوان The Kano Chronicle، حيث يبدأ من صفحة: 99 بذكر أول حاكم وهو باغودا بن باو سنة:(389- 455هـ / 999- 1063م)، وتنتهي في صفحة: 132 في عهد محمد بلو أبن إبراهيم بلو سنة:(1300- 1310هـ/1883-1892م)أي: أنه يذكر 48 حاكماً (لكانو)، وأهم الاحداث التي وقعت في زمانهم:(Palmer 1967 P 92-132) .

وعند محاولة تعميم هذا القول لمصادر التاريخ في تلك المنطقة، فإن الباحث يعجز عن وصف الكم الهائل من المخطوطات التي لم تر النور ولم يحالفها الحظ بعد كحوليات (كانو)، والدليل على هذا أن (المجهول) الذي كتب تلك الحوليات لم يكن الوحيد، حيث نجد مجهولين اخرين شاركوا في تدوين مئات الرواية، فمخطوط (أرباب كنو) (مجهول 3663 ورقة 2-6) مثلاً هي الأخرى تسرد التاريخ الأسطوري نفسه لمدينة كانو، بل تقدم احداثاً مفصلةً واكثر شمولا مما تقدمه حوليات Palmer، ولكنها لا تلقى الاهتمام نفسه.

كما أن مخطوط عبد القادر بن المصطفي والتي تحمل عنوان(بعض اخبار البلاد الحوسية السودانية وطرف من اخبار ملوكها وسلاطينها) (المصطفى رقم 1415ص 1-8) هي الأخرى تقدم كما دقيقا من حيث

الوصف والاحداث، فهي معلومات حول التأسيس والتاريخ والشعوب والاخبار، ولكنها هي الاخرى مازالت بنصها العربي، ولا تستخدم كما استخدمت اخواتها في تاريخ كانو، أو تاريخ الكانم والبرنو .

إن ما يميز ذلك الكم المكتوب الذي هو في الأصل مجموع من الذاكرة الاسطورية الافريقية ليس بالضرورة، وإن لم يكن من صنع النخبة، أو العلماء ومن صنع العامة، وملكٌ لهم، فهو مشاع بين المجتمعات الافريقية، وهذا ربما ما يفسر عدم وجود كتاب أو جامعي تلك المخطوطات، فأثمنها يرد عن مجهول، وهي تدخل باب الاستناد لها واستخدامها عندما تطرح وتتناول كجزء من الارث الثقافي المسموع والمنقول، يعد مدد طويلة كجزء من الشخصية الافريقية، ودون شك مصادرة حق ذلك المكان والزمان المتعاقب في عدم استخدام مأثوره يعد إجحافاً كبيراً .

إن ندرة النص التاريخي الموثوق والمدون، الذي سجل بقصد تدوينه لكي يعبر إلى المستقبل كان قليلاً جداً، لدرجة انه لا يعطي ربع مساحة الزمان والمكان الافريقي، خصوصا عندما يقارن بما قدمه العرب، فلهذا تداولت الرواية وانتقلت وصارت كما هائلاً يغطي المساحة المفقودة، ولو وقف مؤرخ اليوم موقف المتفرج ومارس السلبية وامتنع عن استخدام ذلك الكم، فإنه أمام طريق مسدود، ولا يمتلك الوسائل الأخرى لكي يصل الى ما كان عليه الماضي بالفعل .

وإضافةً إلى ما يطرح من مخطوطات، هي في الأصل شفهية وتم تدوينها ما يعرف بنوازل التكرور (مولود رقم: 103: الجزء 5،6)، وهي مجموع الفتاوى، والنوازل، والعوارض التي تعترض اليها عامة سودان تلك المناطق واجتهاد علمائهم، واتصالاتهم بعلماء المناطق المجاورة، حتى وإن كانت ذات صبغة دينية، الا أنها تقدم معلومات كثيرة عن الواقع وما فيه من سلوكيات، ومعاملات فهي تنقل صورة عن طبيعة الحياة اليومية البسيطة والمعقدة، وكيفية التعامل معها من قبل النخبة المتعلمة، كما أنها تقدم صورة واضحة عن فهم علماء السودان لقضايا الافتاء .

لقد تمكن الباحث من الاطلاع على الجزء الخامس والسادس، اللذين يقعان فيما يقارب من: 1292 ورقة مازالت مخطوطة، وهي تشمل مراحل متعاقبة في العصر الوسيط والحديث، دونت ونسخت ربما في العصر المعاصر، وتم جمعها وتدوينها لكى تحكي قصة النزاعات بين الناس، وحكم الدين فيها فهي دون شك حفظت عبر الذاكرة، ونقلت وتداولت بين العامة؛ لأنها انهت المشاكل التي وقعت بينهم ، بل صارت أعرافاً لا يمكن تخطيها.

إن الملاحظ لما تقدم عن الرواية الشفهية عندما تتحول إلى نص مدون، فإنها تكتسب نوعاً من الجدية ويصبح استخدامها واجباً عند الباحثين على حسب المنهج والفكر والتوظيف، بل إن بعضهم صار يطالب من

باب التنوع السير قدما في استخدام التاريخ الشفهي، ويعلن ذلك صراحة، وفى المقابل فإن فريقاً آخر من المؤرخين يمتنع عن ذلك الاستخدام ولهم في ذلك ردود خاصة بهم. ومهما يكن من امر فإن التاريخ الشفهي السوداني ومصادره يفرض نفسه حتى وإن تأخر الاعتراف به كجزءٍ من المصادر الاولية، وحرمان الدراسات المعمقة من تلك المادة سوف يجعلها تحرم من تنوع مهم.

الخاتمة:

بعد هذا العرض المقتضب لقضية مصادر تاريخ السودان بين التدوين والرواية الشفهية يمكن للدراسة الوصول لمجموعة من النتائج التي تجملها في الآتي:

- السودان الغربي منطقة لديها رصيد علمي وكم كبير من المخطوطات، لم تر النور حتى الآن والمصادر والدراسات الحديثة مازالت تتناول جوانب الحياة الحضارية هناك، عبر ما تطرحه المصادر الإسلامية، وهي نمطية متوارثة من زمن إلى آخر، والحاجة الآن صارت ملحة إلى دراسات ميدانية وعمل طويل للاستفادة من المخطوطات المحلية التي تروي تاريخاً غير معروف حتى الآن.
- غياب المصادر المعتمدة والموثوق فيها، وكذلك التدوين جعل الرواية الشفوية تسيطر على مساحات شاسعة من تاريخ الماضي، ولا تحظى بثقة واهتمام مؤرخي الزمن الحاضر.
- تاريخ السودان الغربي والأوسط الشفهي كان يمثل الجانب الفلكلوري والتراثي، فهو محاكاة للأسلاف واستمرار لوجودهم مع الأحياء؛ لهذا كان وجود المنشدين مصدر فخر لكل العشائر والقبائل الإفريقية، وهم ذوو مكانة رفيعة في مجتمعاتهم.
- الرقص والغناء والحركات الغريبة التي رافقت عملية الأداء تعبر عن الحيوية، وتكسر الجمود، وتبعث الحياة في التاريخ الماضي، وهذا لم يلفت انتباه المؤرخين، بل أن كثيراً منهم صنف ذلك التاريخ بأنه خارج إطار اهتماماته، ولم يدخل ضمن اهتمامات الباحثين والنقاد والاستفادة منه في الدراسات التاريخية.
- كان (كعت والسعدي) نموذجين للمصنفات ذات الأصل الشفهي الرسمي، الذي يروي تاريخ الدول والأحداث، وأعمال الملوك والسلاطين، فهو تاريخ سياسي بامتياز، فعملية النقل والتدوين التي تمت عبر الأجيال حرمت الحيوية والاستمرارية لتاريخ الأسلاف، فكان الخبر التاريخي مجرد سرد حبيس الصفحات، لم يعبر في الحقيقة عن روح المجتمع الافريقي هناك، وهم ما جعل الرواية الشفهية تستمر، بل وتدون في وثائق مازالت لم تحقق بعد .

- مع اعتماد كعت والسعدي على الرواية، خلق هذا الاعتماد خللاً في طبيعة الأخبار، ولكنه لم يضعف المصدرين، فهما يعبران عن مرحلة مهمة ساد فيها هذا النوع من التدوين، فالمنطقة لم تقف جامدة أمام عدم قدرة الأفراد على التدوين، بل خلقت بدائل لحفظ التاريخ حتى وإن تسربت إلى بعضه الخيالية والأساطير.
- النصوص والملاحم الشفهية التي تحولت إلى نصوص مدونة عند السعدي اختلفت عن التي جاء بها كعت، فقد كانت عند السعدي مترابطة وأكثر تناغما مما جاءت عند (كعت)، بل ضاعت الحقيقة عند (كعت) وراء الخيال والجن، ومحاكاة العقلية المحلية أكثر من العالمية، فقد دفعت عباراته وبعض الجمل العامية والمستحدثة إلى الشك في زمن كتابته، ولا يفسر ذلك إلا أن كتاب تاريخ الفتاش ما هو الا إنتاج عائلي اشترك فيه الجد والابن والحفيد، أي: أنه كتب عبر الزمن الماضي، ليشمل الحاضر والحفيد أدخله المستقبل.
- أثبتت الدراسات والبعثات العلمية التي تشتغل في مالي والنيجر ونيجيريا أن كماً هائلاً من المخطوطات تتحدث عن جوانب مختلفة من الحياة الافريقية، تمثلُ مراحل مختلفة لم يكشف عنها إلى الآن، وجزء منها مكتوب بأحرف عربية، ولكنه بلهجات مختلفة.
- ما تم استخدامه من مخطوطات سودانية من قبل مؤرخي الغرب صارت ذات قيمة، ويطلب الرجوع إليها في الدراسات العربية. أما الكم الهائل من المخطوطات الباقية فإنها لم ترَ النور، ولم يهتم بها بعد.
- مصادر التاريخ المدون في السودان الغربي محدودة، وهى تعبر عن التاريخ الرسمي. أما الروايات الشفوية فهي تسرد تاريخ العامة، والخيار يترك للمؤرخين في الاتجاه والاستخدام.
- الروايات الشفهية تُعد نوعاً من الثقافة المحلية حيث، أسهمت الأمية وبدائية المجتمعات في تفشي وتعاطي ذلك النوع من التاريخ الأسطوري، خصوصا عندما انتشر الإسلام ولغته العربية، فنوع التعليم الديني والكتابة بالأحرف العربية خلق بوناً شاسعاً بين الشفهية والتدوين، كما أن النموذج العربي في التدوين الذي كان يقتدى به في بلاد السودان لم يكن سهلاً على السودانيين، وهوما جعل تاريخهم يُحفظ عبر الأسطورة.
- إن الأحداث السياسية التي أعقبت مرحلة التدوين في القرن: 16/15م أدت إلى إتلاف كل ماهو مكتوب، ونقصد بذلك حركة الإصلاح الديني التي قادها عثمان بن فودي، وهذا أدى إلى حفظ التاريخ عبر الذاكرة، ومن ثَم كتب هذا التاريخ مرة أخرى، فدخلت الأسطورة إليه .

الهوامش :

(*) يختلف كثير من المؤرخين في تحديد المدة الزمنية الخاصة بانتشار الاسلام وتجذره في السودان الغربي فبعضهم يرى أن هذه التسمية غير مناسبة، لأن العصر الوسيط كان متأخراً زمنياً في تلك الأنحاء، فهو متداخل مع العصر الحديث وهذا صحيح، ولكن ما يميز تاريخ المنطقة هو ذلك التداخل الذي لا يعترف بتاريخ محدد، وهذا منطقي ومنسجم مع الأحداث التاريخية التي ربما لها بداية ولكن نهايتها غير مضبوطة فالآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تستمر زمناً طويلاً، لذا كان من الضروري الدعوة الملحة من أجل إعادة النظر في مجموعة من القضايا أهمها التقسيم الزمني التاريخي والمحددات الزمنية التي تجبر الباحثين وتقيد بحوثهم بفترات محدده فدراسة الماضي الانساني تحتاج لتتبع النتائج والاثار طويلة الامد فهناك أحداث في التأريخ القديم استمرت في العصر الوسيط واخرى من الحديث استمرت للمعاصر بل هي من تصنع المستقبل . كما ان هذا التقسيم فرض وحدات زمنية قفل بمقتضاها القديم والوسيط، وترك الحديث والمعاصر يتضخم ويستمر إلى زمن قادم أن ما يعتقده الباحث هو أن تلك التقسيمات ما هي الا لغرض تسهيل الدراسات فقط ولا ينبغي التقيد بها عند البحث، فالأحداث التاريخية يجب أن تقاس بعين الباحث والمؤرخ الحاضر، فلكل عصر مؤرخون .

(**) أغلب المصادر العربية الإسلامية كانت تعتمد على التأليف الموسوعي الشامل، وأغلب المؤرخين لم تكن لديهم روح المغامرة والسفر والتنقل، للوقوف على حقيقة ما كتبوا، لهذا كان أساس الاستماع إلى الرواية وقصص وأخبار التجار وطلاب العلم والحجاج هي المادة المصدرية لما كتبوا، وهذا يلاحظ من خلال ما نقله أغلب المؤرخين من معلومات عن السودان الغربي، فالمرحلة الأولى التي تبدأ من (الفزارى) إلى (ابن حوقل) كانت معظمها نقلا ما عدا ما قدمه ابن حوقل الذي زار أودغست، أما المرحلة الثانية التي تبدأ من زمن (البكري) من القرن (11- 15م) فقد شهدت هي الاخرى نقلا واضحا وحرفيا لنصوص كتبها الاوائل فأخذها من جاء بعدهم دون نقد أو تعليل ووضعت كما هي باستثناء من زار تلك المنطقة وهم قله. انظر الهامش رقم:(9) من هذا البحث وكذلك كرم الصاوي الباز، دراسة نقدية تحليلية لمصادر التاريخ الاقتصادي لمنطقة غرب إفريقيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة: 2004م ، ص76-110 .

(***)**القسم الأول**: السودان الغربي يشمل حوض نهر السنغال، ونهر غامبيا والمجرى الأعلى لنهر الفولتا والحوض الأوسط لنهر النيجر .

والقسم الثاني: السودان الأوسط: يشمل حوض بحيرة تشاد وما حولها كرقعة جغرافية، ثم ككيان سياسي مثلته دولة الكانم والبرنو التي لم يكن بينها وبين إمارات الهوسا أي حد اداري، وانما كانت الأطماع والطموحات السياسي هي من ترسم الحدود الفاصلة .

أما القسم الثالث: وهو السودان الشرقي الذي يشمل الحوض الأعلى لنهر النيل جنوب بلاد النوبة، وكل الساحل الشرقي للقارة الافريقية وصولا الى وكلوه ولامو وزنجبار فقد كان يعرف عند مؤرخي العرب في القرن التاسع هجري باسم ساحل بلاد الزنج .

-- هوبير ديشان: الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، مراجعة محمد عبد الله دراز، تقديم: مصطفي لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2011م، ص 40– 110، المرابطون وبلاد السودان (462هـ/1070م) إلى (541هـ/ 1147 م) تمخضت دعوة عبد الله بن ياسين في القرن 5هـ / 11م، عن اتحاد القبائل الصنهاجية، تحت زعامة لمتونة وعرفت بالمرابطين، وكانت هذه القبائل الصحراوية في نزاع مع مملكة غانا الوثنية، وذلك بسيطرتها على الطريق التجاري الذي يربط غانا، سجلماسة، والطريق الساحلي . لم تكتف هذه القبائل بما تأخذه من القوافل التجارية من مكوس وإتاوات، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فسيطرت على المركز التجارية الصحراوية مثل سجلماسة و أودغشت للاستفادة المباشرة من التجارة ، تمهيدا للتوغل في البلاد السودانية التي أصابها ريح الدعوة المرابطة . وسعى المرابطون إلى الاستيلاء على مناطق نفوذ مملكة غانا، وهدفهم من ذلك نشر الإسلام والبحث عن موارد اقتصادية تقوي حركتهم، وبذلك سيغيرون على المراكز التجارية التي توجد في شمال بلاد السودان مثل أودغشت وهي من أعمال غانا التي دخلوها سنة (446هـ/1054م) حيث فقدت غانا بذلك مركزا تجاريا مهما وموردا لثروتها، وقد استباح المرابطون حريمها وجعلوا ما أصابوا فيها فيئا ، وعملوا بعد سيطرتهم على الصحراء، على إعادة نشر الإسلام في ممالك السودان الغربي في منطقة التكرور على نهر السنغال، ومملكة مالي القديمة، (أعالي النيجر)، ومملكة صنغي بإقليم كاغ بمجرى النيجر الوسط، وحدث تصاعد ملحوظ في عدد العلماء الذاهبين إلى السودان لتلقين تعاليم الإسلام واللغة العربية في المناطق التي أسلمت . وتعد مدينة (تنبكت) التي أسست في القرن(5هـ/ 11م) خير شاهد على قوة تسرب الإسلام والثقافة الإسلامية إلى السودان. كما وجدت بصنغي شواهد قبور باللغة العربية . وأقبل التجار بالموازاة مع ذلك على فتح قنوات اقتصادية مع المنطقة بل أخذ بعضهم يتعلم لغات السودان كما ذكر ذلك الحسن الوزان، وحصلوا على حظهم من ذهب المنطقة ومنتجاتها، وروجوا منتجاتهم المتنوعة . وانتقل إلى الضفة الشمالية العديد من أبناء المنطقة الذين انخرطوا في الجيش، وشاركوا في الجهاد بالأندلس خاصة في معركة الزلاقة. ومن الملاحظ أن العلاقات بين السودان والمغرب تتطور بحسب التغيرات السياسية للمنطقتين، إذ استطاعت غانا التحكم في أودغشت عاصمة لمتونة بالصحراء والتحكم في التجارة السودانية والذهب ، في عز

قوتها، لكن عندما اتحدت قبائل صنهاجة تحت اسم المرابطين ، سعى هؤلاء إلى الاستيلاء على مراكز التجارة في الشمال وإلى التحكم في السودان نفسه بعد أن دخلت غانا في مرحلة الضعف، وبعد أن كان المرابطون في أوج قوتهم تحت زعامة المؤسسين الأوائل. وقد عرف السودان الغربي بعد ذلك صعود قوة أخرى عوض غانا في حين فقد المرابطون تناسقهم في الصحراء بعد موت أبي بكر بن عمر سنة (480هـ/1087م) وهوما مكن ملوك غانا القدامى من العودة إلى الحكم في إطار مملكة صغيرة، إلى أنها سقطت بظهور مملكة مالي التي سيطرت على السودان وموارده الاقتصادية المهمة وكذلك سيعرف شمال الصحراء صعود دولة الموحدين لمزيد من المعلومات أنظر: محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان ، 1992م، 685. 687؛ عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ بن خلدون، تحقيق حسن شحادة، مراجعة سهيل زكار، جـ6، دار الفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، 2001م، ص264 ـ 268؛ أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، ص172 ـ 183الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، جـ 2، ط 2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1983م، ص144. 170؛ أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230. 1430م) ، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999م، ص 82 ـ 106، 114 ـ 225 .

(****) لقد قدم المؤرخ أحمد الشكري في كتابه (الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي) دراسة مهمة حول نقد وتحليل مصادر التاريخ في منطقة السودان الغربي (ق14م/15م) تحدث فيها عن المصادر التي يمكن الركون إليها مع تقديم وعرض جيد لكثير من القضايا خصوصا ما يتعلق بالمصادر الأثرية والدراسات (الأكيولوجيا)، ويقف عند أهم الأبحاث والدراسات والحفريات التي أجريت في المنطقة من قبل أكبر الجامعات الغربية، كما يعرض بعض من الدراسات الأندلسية المتعلقة بالمنطقة . ثم يعرض المصادر العربية الاسلامية وظروف كتابتها ويحددها في مراحل: الأولى: تضم (ابن حوقل) صورة الأرض، و(ابن عبد الحكم) فتوح البلدان، و(اليعقوبي) البلدان، و(ابن الصغير) أخبار الأئمة الرستميين . المرحلة الثانية: البكري المسالك والممالك، والمغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، والإدريسي نزهة المشتاق ، والمغرب وارض السودان ومصر والأندلس، و(ابن سعيد) كتاب الجغرافيا و(ياقوت الحموي) معجم البلدان، و(ابن الأثير الجزري) تحفة العجائب وطرفة الغرائب، و(القزويني) آثار البلاد وأخبار (العباد)، و(الحميري)، الروض المعطار في خبر الأقطار وابن ياقوت كتاب الإقليم السبع، وابن بطوطة رحلة ابن بطوطة، وأبو الفداء المختصر في أخبار البشر، وتقويم البلدان، والنويري نهاية الإرب في فنون الأدب، وابن الوردي تتمه المختصر في أخبار البشر، والعمري مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وابن أبي زرع الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك

المغرب وتاريخ فاس، وابن خلدون تاريخ ابن خلدون، والقلقشندى صبح الأعشى في صناعة الأنشا، والحسن الوزان وصف إفريقيا. ويمكن الرجوع أيضا إلى بعض مصادر التاريخ الإسلامي الخاصة مثل المقريزي، وابن تغري بردى، وغيرهم من الذين قدموا إشارات عن السودان الغربي، كما تضيف الدراسة المصادر السودانية وهي قليلة جدا وتختصر في تاريخ الفتاش، للمؤرخ محمود كعت وتاريخ السودان للسعدي. ثم المصادر المسيحية كشهادات البرتغاليين، مثل مرمول كاربخال إفريقيا. ثم تقدم الدراسة الرواية الشفوية كما تقف عند أهم الدراسات الغربية والعربية عن المنطقة والتي أهمها دراسة ريموند مرني لوحة جغرافية، وجون هنويك، الذي له عديد الدراسات والمقالات، منها التراث الإسلامي في مخطوطات تنمبكتو، والأب يوسف كيوك مدونة المصادر العربية، وجبريل نيان دراسات اقتصادية عن الممالك السودانية، وإبراهيم طرخان ، والهادي الدالي، واحمد الشكري، وغيرهم من المراجع الحديثة التي تخصصت في المنطقة. انظر: أحمد الشكري، المرجع السابق، ص7 . 51 ؛ كرم الصاوي الباز، مرجع سابق، ص 76-110.

(*****) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ، صاحب كتاب تاريخ السودان من أهم وأشهر مؤرخي بلاد السودان الغربي إن لم يقال ثاني اثنين فقط، هما كتبا عن تاريخ المنطقة في العصر الوسيط من المحليين حيث وضع مصنفه لكي يحفظ تاريخ صنغاي، فجاء شاملاً لتاريخ المنطقة وسكانها واهم الإحداث التي وقعت في عهده هذه الدولة .

(******) هو القاضي الفع محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني التنبكي الوعكري صاحب كتاب تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، فإنه يقول إنه يؤلف من أجل حفظ الوقائع وعظائم الأمور، ومن اجل حفظ الأنساب ، كما أنه من أجل ذكر سلاطين الصنغي، وذكر عظمتهم واحترام الناس لهم وطرق معيشتهم وكيفية تصريفهم للأمور .

(*******) إن المدهش في الأمر عن موضوع مصادر السودان الغربي أن أعداداً كبيرة جدا من المخطوطات في المنطقة لم تر النور بعد، وهي تؤرخ للسودان الغربي في كل جوانب حياته في العصر الوسيط، ففي مركز أحمد بابا، وبمساعدة منظمة اليونسكو تم تسجيل أكثر من حوالي 10,000 مخطوطة، تعود ملكيتها إلى ما يقارب من 80 إلى 100 أسرة، وجزء كبير من المخطوطات يرجع إلى القرن 12م وإنها مكتوبة في المقام الأول باللغة العربية، التي كانت اللغة السائدة في المنطقة في ذلك الوقت، كما تم العثور من قبل علماء غربيين على مخطوطات مكتوبة باللغات المحلية الأفريقية مثل Bornu، الصنغي، والفولاني باستخدام الحروف العربية. وهذا يعطي المصادر نوعاً من التنوع، كما انه يقدم الأفارقة كشعوب مشاركة لها القدرة على

كتابة التاريخ بلغاتها المحلية. أنظر: جون هنويك، مقالة: المتحللة مخطوطات تدل على تاريخ إفريقيا الفصيح، بواسطة دانيال ديل كاستيلو، تمبكتو، مالي، ص 3 . 8 .

قائمة المصادر والمراجع:

المخطوطات:

- عبد القادر بن المصطفى مالم تقا: بعض أخبار هذه البلاد الحوسية السودانية وطرف أخبار ملوكها وسلاطينها ونتفا من نوادر علمائها، مخطوطة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية: نيامي. النيجر، رقم: 1415.
- مجهول: تاريخ أرباب كنو: مخطوطة بمعهد الأبحاث في العلوم الإنسانية، نيامي: النيجر، رقم:3663 .
- المصطفى بن أحمد بن عثمان مولود، نوازل التكرور، مخطوط بمركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، تمبكتو، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، تحت رقم1031، الجزء : 6,5 .

المصادر :

- ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي (ت:779هـ/1377م)، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان، 1992م . . البكري أبي عبيد الله بن عبد العزيز(ت487هـ/1095م) ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، مصر ، د،ت .
- البكرى أبي عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، (د . ت) .
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/ 1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: حسن شحادة ، مراجعة سهيل زكار، جـ6، دار الفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م.
- دنهام كلابرتون أودنى، رحلة لاستكشاف إفريقيا، ترجمة عبد الله عبد الرازق إبراهيم، مراجعة شوقى عطا الله الجمل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة: 2003م .
- السعدى عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران (ت:1067هـ/1656م)، تاريخ السودان، نشره هوداس، مطبعة أنجي، باريس :1981 م.
- العمري شهاب الدين أبو العباس أحمد (ت 749هـ/1347م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: حمزة أحمد عباس، جـ 4، المجمع الثقافي أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، 2002م.

- كعت محمود بن المتوكل الكرمني (ت1002هـ/1593م)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، مطبعة بردين، مدينة أنجي، باريس، 1920م
- الوزان الحسن بن محمد (ت: 960هـ/ 1552م) وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، جـ2، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1983م .

المراجع:

- أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230. 1430م)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة: 1999م .
- الذاكرة الأفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن: 18م نموذج بلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، المغرب: 2010م .
- حوريه توفيق مجاهد، الإسلام في إفريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر: 2002م .
- فيج. جي. دي، تاريخ غرب إفريقيا، ترجمة السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، مصر :1982م.
- محمد فاضل علي باري، سعيد إبراهيم كريديه، المسلمون في غرب إفريقيا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: 2007م.
- هوبير ديشان، الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة: أحمد صادق حمدي، مراجعة محمد عبدالله دراز، تقديم مصطفي لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة: 2011م .

الدوريات العملية:

- جون هنويك، مقالة: المتحللة مخطوطات تدل على تاريخ إفريقيا الفصيح، بواسطة دانيال ديل كاستيلو، تمبكتو، مالي: 1999م .
- كرم الصاوي الباز، دراسة نقدية تحليلية لمصادر التاريخ الاقتصادي لمنطقة غرب أفريقيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة: 2004م .

المراجع الاجنبية :

John Hunwick , THE ISLAMIC MANUSCRIPT HERITAGE OF TIMBUKTU , 1999 .

lsIam first Entered the African continent almost . pp2 -10 .

- ——

- Palmer : H.R. Sudanese Memoirs , Frank Cass and CO. LTD,Vol 3 , London ,1967

- Mauny R. " Tableau Geographique de I' Ouest Aficain an Moyen-age Men de IF : A.N.B No 61,Dakar,1961.

- Robin Hallett, The Golden Trade Of The Moors,Oxford University Press198.